المجاعات والأوبئة في قسنطينة خلال سنة 1866-1868 من خلال كتاب مجاعات قسنطينة لمؤلفه صالح بن محمد بن العنتري

Famines and Epidemics in Constantine during the year 1866-1868 through the book The Constantine Famines by Saleh bin Muhammad bin Al-Antari

إعداد: خريس فاطمة

باحثة دكتوراه تاريخ عام (وسيط)، وعضو في مختبر تاريخ الجزائر، جامعة وهران1

Prepared by: Kherris Fatima

PhD researcher in general history (intermediate), and a member of the Algerian History Laboratory, Oran University 1

ملخص:

تعد هذه الدراسة رؤية تاريخية، نوضح من خلالها انتشار الأمراض والأوبئة والمجاعات في بلاد المغرب خلال القرن 19م والتي تخص منطقة قسنطينة التي سجلت لنا المصادر التاريخية مدى خطورة المجاعات التي عرفتها خاصة سنة 1866–1868م، بسبب الجوائح كالجفاف والجراد والثلوج والأمطار أو بسبب الاحتلال الفرنسي الذي تفاقمت في عهده آثار المجاعات والأوبئة، حيث أضر الوباء أكثر بالفئات الفقيرة وتسبب في أوضاع مزرية، واختلفت حدته حسب المناطق، وكانت قسنطينة الأكثر تضررا، خاصة بعد ارتفاع أسعار الحبوب، ونفاذ الأغذية من المخازن، وأصبح أهالي قسنطينة يلجئون لأكل الجيفة، وهذا ما أدى إلى انتشار الأمراض كالكوليرا والتيفوس وغيرها، وتكاثرت أعمال العنف والنهب من قبل الأهالي والتي زادت من حدة الفقر في قسنطينة.

ولهذا سنتناول في موضوع البحث المجاعات والأوبئة التي مست قسنطينة خلال القرن 19م معتمدين في ذلك على كتاب مجاعات قسنطينة لصالح بن محمد بن العنتري الذي قدم لنا في كتابه مختلف المجاعات والأوبئة والأمراض الفتاكة التي اجتاحت قسنطينة في نهاية عهد الدولة العثمانية وبداية الاحتلال الفرنسي، لكون أن المؤلف قد عاصر هذه الفترة فقد فصل في ذكر أسبابها وكذا نتائجها، فضلا على أنه تحدث عن دور الحروب والصراعات في خلق مثل هذه الأزمات خلال القرن 19م.

الكلمات المفتاحية: مجاعات قسنطينة، الوباء، الكوليرا، صالح بن محمد بن العنتري، الاحتلال الفرنسي.

Abstract:

Abstract: This studyis a historical vision, through which we explain the spread of diseases, epidemics and famines in the Maghreb during the 19th century AD, which concerns the Constantine region, which historical sources recorded for us about the severity of the famines that I knew, especially in the years 1866-1868 AD. Because of pandemics such as the French drought, during whose reign the effects of famine and epidemics aggravated, as the epidemicaffected the poor groups more and cause dmiserable conditions, and

itsse verity varied according to regions, and Constantine was the mostaffected, especially after the increase in grain prices, and food ran out of stores, and the people of Constantine resorted to eating carrion, This is what led to the spread of diseases such as cholera, typhus, etc., and acts of violence and looting by the people multiplied, which increased the severity of poverty in Constantine. That is why we will deal with the subject of the research, the famine that affected Constantine during the 19th century AD, relying on the book The Famines of Constantine in favor of bin Muhammad al-Antari, who presented to us in his book the various famines, epidemics and dead lydiseases thats wept Constantine at the end of the Ottoman Empire and the beginning of the French occupation, because the author had experienced During this period, he elaborated on their causes as well as their consequences, in addition to speaking about the role of wars and conflicts in creating such crises during the 19th century.

Keywords: Constantine, famine, epidemic, cholera, French occupation

مقدمة:

شكلت المجاعات والأوبئة خطراً حقيقياً على حياة سكان قسنطينة، حيث ظلت تهددهم بالفناء، ومن بينها المجاعة التي ظهرت سنة 1838م، وعاودت الظهور بشكل أقوى سنة 1847م، حيث أصيب سكان قسنطينة بقحط شديد استمر إلى سنة 1850م بسبب كثرة الجراد، وبعد فترة كُمون دامت ستة سنوات. ظهرت المجاعة من جديد سنة 1866م واستمرت إلى غاية 1868م، والتي أشرف فيها الناس على الهلاك، وقد سميت بـ"المجاعة السوداء" لما شهده سكان قسنطينة من التّشتت والفناء في هذه السنوات.

ولأن هذا الموضوع بحاجة ماسة إلى دراسة عميقة، استوجب منا الإلمام بكل حيثياته، وإماطة اللثام عن هذه الفترة العصيبة التي مرت بها قسنطينة وأهلكت سكانها، ولذلك ارتأينا ضرورة التعرض لدراسة مجاعة قسنطينة من خلال أشهر من كتب عنها وعاصر أحداثها السياسية في نهاية الدولة

العثمانية وبداية الاحتلال الفرنسي وهو صالح بن محمد بن العنتري القسنطيني، الذي عالج هذه المجاعة بأسلوبه البسيط والدقيق محللاً بعمق الأسباب التي كانت وراء هذه الفاجعة.

مشكلة البحث:

ولتكون الدراسة سليمة في جوهرها، ومبنية على حقائق علميّة، كونها من المواضيع الحساسة التي لها تأثير مباشر على الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية وغيرها لمدينة قسنطينة فكان لزاما علينا طرح الإشكاليات التالية:

مامدى تأثير المجاعة على سكان مدينة قسنطينة خلال الفترة المدروسة؟ وكيف واجه الأهالي هذه الفاجعة؟ وماهي الآثار الديمغرافية الناتجة عن هذه الفاجعة؟.

من هو المؤرخ صالح بن محمد بن العنتري القسنطيني؟ كيف كانت أوضاع قسنطينة خلال فترة المجاعة؟ وماهي أسباب المجاعة والأوبئة التي مست مدينة قسنطينة؟ وماهي أشهر الأوبئة التي خلفتها هذه المجاعة؟.

منهج الدراسة:

اعتمدنا في هذه الدّراسة على توظيف المنهج التّاريخي الوصفي التّحليلي، الذي يقوم على جمع النصوص التاريخية وتحليلها، ووصف الظواهر الطبيعية بصورتها الحقيقة الموجودة في الواقع ودراستها دراسة دقيقة بطريقة علمية.

أهمية الدراسة:

إنّ أهمية موضوع "**المجاعات والأوبئة في قسنطينة خلال سنة 1866-1868**" تتمثل في دراسة لأهم المراحل التي عاشتها مدينة قسنطينة من خلال مصدر مهم من المصادر التاريخية التي درست أحوال قسنطينة وعالجتها بعمق، كما أن هذا المصدر محدد يتمثل في كتاب "**مجاعات قسنطينة لصالح بن محمد بن العنتري**"، بحيث يحتوي على مادة تاريخية قد لا نجدها في مصادر أخرى لأنّ صاحبها معاصرا للأحداث، كما يعد هذا الموضوع من الدراسات الحديثة النادرة نوعا ما ويحتاج إلى البحث والتنقيب خاصة وأن قسنطينة أحيطت بجميع الدراسات على اختلاف أنواعها حيث غطت الجوانب السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية وغير ذلك.

هيكل الدراسة:

قسمنا الدراسة إلى ستة مباحث حيث تطرقنا في المبحث الأول التعريف بالمجاعة والمبحث الثاني التعريف بالوباء أما المبحث الثالث خصصناه لتّعريف بالمؤلف صالح بن محمد بن العنتري القسنطيني، كونه معاصرا للأحداث، كما عالجنا في المبحث الرابع أوضاع قسنطينة خلال هذه الفاجعة، ورصدنا فيها المستوى المتدني الذي وصلت إليه بسبب المجاعة، ثم تناولنا في المبحث الخامس الحديث عن مختلف الأسباب التي كانت وراء حدوث المجاعات والأوبئة في قسنطينة، وذكرنا في المبحث السادس أشهر الأوبئة التي مستها خلال الفترة المدروسة.

المبحث الأول: تعريف المجاعة:

– لغة:

المَجاعةُ مَفْعلةٌ من الجُوع، الجُوع: اسم للمَخْمَصةِ، وهو نَقِيضُ الشِّبَع، والفعل جاعَ يَجُوعُ جَوْعاً وجَوْعةً ومَجاعةً، فهو جائعٌ وجَوْعانُ، والمرأَة جَوْعَى، والجمع جَوْعَى وجِياعٌ وجُوَّعٌ وجُيَّعٌ[1]؛ ويقال: عامُ مَجاعَةٍ ومَجْوَعَةٍ :فيه الجُوعُ[2]، وجاع بمعنى: أراد الطعام وأحس بالحاجة إليه.[3]

ويقال للمجاعة الشّدَةُ. وشدَّة العيش: شَظفُه، وقيل إن العرب كانت تسمي القحط شتاءً لأن المجاعات أكثر ما تصيبهم في الشتاء البارد، والإنفاض يعني المجاعة والحاجة، ويطلق على المجاعة الخوبة، وهي الأرض التي لم تمطر بين أرضين ممطورتين. والخَوبة: الجوع، وإذا قيلت بالحاء فمعناها الحاجة.[4]

– اصطلاحا:

ليس هناك تعريف متفق عليه حول المجاعة لكن المصادر التاريخية تؤكد أن أسباب المجاعة هي الحروب على حد قول ابن خلدون:"ثمّ إنّ المجاعات والموتان تكثر عند ذلك في أواخر الدّول

[1]– ابن منظور الإفريقي، لسان العرب، دار صادر، بيروت، 1414ه/1993م، مج8، ص61./ الجوهري، إسماعيل بن حمّاد، الصّحاح تاج اللّغة وصحاح العربية، تح : أحمد عبد الغفور عطّار،ط3، دار العلم للملايين، بيروت، 1404ه/1984م، ج3، ص1201.

[2]– الفيروزآباديّ، مجد الدين محمد بن يعقوب، القاموس المحيط، تح: مكتب تحقيق التراث، إشراف: محمد نعيم العرقسوسي،ط8، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1426ه/2005م، ص711.

[3]– جُبران مسعود ، الرائد معجمٌ لغويٌّ عصريٌّ، ط7، دار العلم للملايين، بيروت، 1992م، ص286.

[4]– ابن منظور، المصدر السابق، مج3، ص234./مج1، ص422./ مج7، ص241./مج1، ص368.

والسّبب فيه: إمّا المجاعات فلقبض النّاس أيديهم عن الفَلْحِ في الأكثر بسبب ما يقع في آخر الدّولة من العدوان في الأموال والجبايات أو الفتن الواقعة في انتقاص الرّعايا... فإذا فُقد الاحتكار عظم توقّع النّاس للمجاعات فغلا الزّرع وعجز عنه أولو الخصاصة فهلكوا"[5]. ويقصد بذلك ابن خلدون أن الحروب على الدول قد تؤدي إلى تراجع النشاط الاقتصادي وخاصة الفلاحة، بحيث يصبح الفلاحون غير قادرين على زراعة أراضيهم إما بسبب ارتفاع أسعار الحبوب أو بسبب تدمير الأراضي من قبل المحتل، أو احتكار أموالهم وأراضيهم ظلماً، وبالتالي يصبحون غير قادرين على دفع الضرائب المفروضة عليهم وهذا ما يؤدي بهم فعلا إلى الإفلاس ومن ثمّ المجاعة.

المبحث الثاني: تعريف الوباء

– لغة:

الوَبَأُ: الطاعون بالقصر والمد والهمز، وقيل هو كلُّ مَرَضٍ عامٍّ، وجمعُ الممدود أَوْبِئةٌ وجمع المقصور أَوْباءٌ، وقد وَبِئَتِ الأَرضُ تَوْبَأُ وَبَأً.وقد وَبِئَتِ الأَرضُ تَوْبَأُ وَبَأً. ووَبُوأَتْ وِبَاءً وَوِباءة، وهي وَبِئَةٌ ووَبِيئَةٌ ومُوبِئَةٌ وبؤ المكان: كثر فيها لوباء وهو المرض العام[6]، يطلق على الوباء مرادفات أخرى من: القرف، يقال احذر القَرَفَ في غنمك. وقد اقْتَرَف مرض آل فلان، وقد اقترفوه اقترافاً: وهو أن يأتيهم وهم مرضى فيصيبهم ذلك.[7]

– اصطلاحا:

ذكر الشقوري أن الوباء:"سببه فسادٌ مثبوتٌ في الهواء المتنفّس فيه، فلذلك أمر الأطباء بإصلاح الهواء، وهو من أكد الأشياء، ولا يعرف الهواء والحاجة إليه الكثير من الناس، وإنما يعرفه من يعتريه أمرٌ يضيّق نفسه من تعب شديد أو مرض في آلات التنفس، ثم إن هذا الفساد يقع في الأبدان ويؤثر فيها تأثيرا عظيم"[8]، ويؤكد كذلك الأنطاكي أن الوباء سببه تغير الهواء إلى الفساد[9]، ولهذا يمكن القول

---

[5]– ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد الحضرمي الإشبيلي، تاريخ ابن خلدون المسمّى ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، تح: خليل شحادة، مر: سهيل زكار، دار الفكر، بيروت، 1421هـ/2000م، ص376.

[6]– ابن منظور، المصدر السابق، مج1، ص189./ الفيروزآباديّ، المصدر السابق، ص55.

[7]– ابن منظور، المصدر السابق، مج9، ص280.

[8]– ابن الخطيب، لسان الدين، مقالة مقنعة السائل عن المرض الهائل، تح: حياة قارة، مكتبة الكرامة، الرباط، 1436هـ/2015م، ص22.

[9]– داود عمر الأنطاكي، بغية المحتاج في المجرّب من العلاج، دار الفكر، بيروت، 1415هـ/1995م، ص333.

أن الوباء ينتج عن فساد الهواء، ولا يزال هذا المفهوم قائما إلى يومنا هذا رغم بعض التطورات والاكتشافات التي شهدها علم الطب في مجال الأوبئة والطاعون.

المبحث الثالث: تعريف صالح بن محمد بن العنتري

باحث، له اشتغال بالتاريخ. من أهل قسنطينة، ينتمي إلى عائلة الخوجات وموظفين في الإدارة العثمانية، وكان أبوه محمد من أعيان المدينة وكاتبا لدى الحاج أحمد باي أخر بايات قسنطينة، وقيل إن الحاج أحمد باي قتله عند التحضير للحملة الفرنسية، لأنه أرسله إلى قائد الحملة نواحي قالمة للتفاوض مع الفرنسيين عندما هاجموا قسنطينة، وعندما رجع محمد العنتري وأخبر الباي بما رأى وسمع نقم عليه واتهمه بالخيانة وبأخذ رشوة من ولد سلطان فرنسا ليشيع قوة الفرنسيين بين السكان فيهلعوا ويستسلموا[10]، ويذكر ابنه صالح العنتري أنه قتل بسبب الوشايات التي كانت تلاحقه من قبل الحاقدين عليه من أعدائه، وظل يرد هذه التهمة عن والده وينكرها طوال حياته.[11]

أدرك صالح العنتري أواخر العصر التركي وألم بالأحداث التي صاحبت احتلال المدينة، وعاش ما يزيد عن ثلاثين سنة في عهد الاحتلال الفرنسي في القرن 19م[12]، عيّن كاتباً في المكتب العربي الذي أنشأه الفرنسيون بمدينة قسنطينة بعد احتلالهم لها[13]، وقد نال مكانة مرموقة على عهد الكابيتان بواسوني الذي كان مستشرقا ذكيا يحسن العربية. ويطالع كتبها على اختلاف موضوعاتها، وكانت له معرفة بأحوال العرب، وقد عاصر مجموعة من العلماء والأدباء بقسنطينة ومنهم محمد الشاذلي الشهير[14]، وأحمد بن مبارك المؤرخ وقد اشتهر بتأريخه لقسنطينة مثل صالح بن محمد بن العنتري

---

[10]– صالح العنتري، مجاعات قسنطينة، تح: رابح بونار، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1394هـ/1974م، ص6./ عادل نويهض ، معجم أعلام الجزائر من صدر الإسلام حتى العصر الحاضر، ط2،مؤسسة نويهض الثقافية، بيروت، 1400هـ/1980م، ص246./ أبو قاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي 1830–1954، ط1،دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1998م، ج7، ص342–343.

[11]– صالح العنتري، المصدر السابق، ص11./ عادل نويهض، المرجع السابق، ص246.

[12]– صالح العنتري، المصدر السابق، ص6–8./ عادل نويهض، المرجع السابق، ص246.

[13]– عادل نويهض، المرجع نفسه، ص246.

[14]– محمد الشاذلي: هو محمد بن محمد بن إبراهيم بن أحمد، المعروف بمحمد الشاذلي القسنطيني، نبغ في الفنون والآداب، مشارك في بعض العلوم، من فقهاء المالكية، ولد ونشأ وتعلم بقسنطينة، ولما احتلها الفرنسيون سنة 1837م غادرها إلى نواحي سطيف، ثم عاد إليها، واتصل بالفرنسيين، فكانت له صلات متينة مع كبارهم من مدنيين وعسكريين، وتولى بموافقتهم قضاء المالكية حوالي عشرين سنة، كما تولى إدارة مدرسة سيدي الكتافي منذ تأسيسها سنة 1850م إلى حين وفاته، له "ديوان شعر". ينظر: الحفناوي، أبو القاسم محمد، تعريف الخلف برجال السلف، مطبعة بيير فونتانة الشرقية، الجزائر، 1324هـ/1906م، ص386./عادل نويهض، المرجع السابق، 185.

نفسه، وكان صديقا له، وقد توفي سنة 1287هـ/1870م، ومحمد بن المسبّح القسنطيني (ت1242هـ/1827م) [15] وأبو القاسم بن محمد بن عيسى (1234هـ/1819م) [16] وأبو منصور عمار شريط القسنطيني (1250هـ/1835م) [17] وغيرهم.[18]

إن ما تميز به صالح العنتري عن هؤلاء العلماء احتكاكه المباشر بالمشاكل الاجتماعية والسياسية لما عمل في المكتب العربي الذي كان يسيره ويشرف عليه، وقد عالج تلك المشاكل بكثير من الدّقة والعمق[19]، وهذا ما يشهد على تفوقه وعلو همّته، ويعد هذا الكتاب من أعظم مؤلفاته من حيث الجودة وبراعتة في الوصف وإحصاء الوفيات وتحليل الواقع الإقتصادي في قسنطينة خلال الفترة المدروسة.

- مؤلفاته:

– كتاب من آثاره "الأخبار المبنية في تاريخ قسنطينة" سنة 1844م ترجم إلى الفرنسية، وطبع سنة 1846 م بإعانة الضابط بواسوني (Boissonee).[20]

–كتاب "مجاعات قسنطينة" وقد ألف العنتري هذا الكتاب عام 1870 بطلب من الضابط دولير المكلف بشؤون العرب بقسنطينة، والذي أراد أن يتعرف على أحوال المنطقة وأهلها من خلال العنتري الذي اطلع على كثير من المشاكل الاجتماعية والاقتصادية من خلال المكتب العربي

[15]– محمد بن المسبح القسنطيني:أبو عبد الله، الشيخ العلاَّمة، الجليل الأديب، الواعظ الخطيب، قاضي السادة الحنفية ببلد قسنطينة، كان أديبًا بليغًا، عارفًا بالعربية وعلوم اللُّغة والحديث، مشاركًا في الفنون، له باعٌ مديد في صناعة الخَطابة والإنشاء، ذا صوتٍ حسن فائق، كان مالكيًّا فحوَّله عثمان باي إلى المذهب الحنفي، وولاَّه الخطابة بجامع سوق الغزل، وبه كان يُصلِّي الأمير، وولي قضاءَ الحنفية بقسنطينة مراراً. ينظر: الحفناوي، المصدر السابق، ص173.

[16]– أبو القاسم بن محمد بن عيسى:كاتب، من الفقهاء العلماء. تعلم بمدينة الجزائر ومازونة وملیانة ووهران وزواوة. ثم اشتغل بالتدريس، وتولى الكتابة للحاج أحمد باي. ينظر: عادل نويهض، المرجع السابق، 74.

[17]– عمار بن شريط القسنطيني، أبو منصور: فقيها وأدبا وعالما بالحديث والأصول، طويل الباع في علم البلاغة، من أهل قسنطينة، ولي فتيا السادة المالكية بها ثم نظر الأوقاف. ينظر: الحفناوي، المصدر السابق، ص286./ عادل نويهض، المرجع السابق، 187.

[18]– صالح العنتري، المصدر السابق، ص7–9.

[19]– المصدر نفسه، ص9.

[20]– نفسه، ص7./ عادل نويهض، المرجع السابق، ص246.

الذي كان يشتغل به، وعالجها بنوع من الدقة والتفصيل لكن أيضا بنوع من التحيز للطرف الفرنسي. [21]

– كتاب "فريدة منسية في حال دخول الترك بلد قسنطينة واستيلائهم على أوطانها" وكان التأليف بإيعاز من الضابط بواسوني لضرب ما تبقى من النظام العثماني بالجزائر. [22]

– وفاته:

لم تذكر المصادر التاريخية بالضبط تاريخ وفاته، ويرجح محقق كتابه "مجاعات قسنطينة" أن وفاته كانت بعد انتهائه من تأليفه لكتاب المجاعات سنة 1870م بقليل. [23]

المبحث الرابع: دراسة الوضع في قسنطينة:

عرفت قسنطينة كل أنواع الأزمات السياسية والاجتماعية، والنكبات الإقتصادية منذ أن وطأت جحافل الغزو الاستعماري الاستيطاني بأقدامها ثرى الجزائر، وكانت السياسة الوحشية التي طبقتها السلطات الفرنسية ضد الجزائريين أساس كل هذه المحن، التي عملت على تحويل الجزائريين إلى طبقة بائسة محرومة من كل ضروريات الحياة ومتطلباتها[24]، ولهذا فإن المجاعة لا يمكن أن تحدث بفعل العوامل الطبيعية فقط، بحيث يمكن للإنسان أن يتسبب فيها مثل الحروب التي تتسبب بإتلاف المحاصيل إما عن قصد أو نتيجة للقتال، بالإضافة إلى ذلك يتم قطع الإمداد من المدن المجاورة، ومنع الهجرة إلى مناطق أخرى أكثر أمناً، وكذلك منع توزيع الطعام بين السكان من قبل الاحتلال.

أشتدت المجاعة بالأرياف وهاجر السكان المدينة وقد وصف العنتري ذلك قائلا:"فالطرق ممتلئة بهم يمينا وشمالا، ووجوههم مقشعرة بالية، وأرجلهم حافية، وظهورهم عارية"[25]، ومما كتبه أحد الفرنسيين الذين زاروا الجزائر في تلك الفترة واسمه كلاماجيران Clamageran مايلي:" عندما كانت المجاعة تؤدي بحياة السكان العرب في الشتاء الرهيب الذي عرفته البلاد في 1867–1868 التجأ

[21]– أبو قاسم سعد الله، المرجع السابق، ج7، ص342./ كمال بن صحراوي، مجاعة 1868 بالجزائر من خلال نصوص محلية وأخرى فرنسية، مجلة عصور جديدة، ع26، 1438هـ،/2016–2017م، مج7، ص278.

[22]– أبو قاسم سعد الله ، المرجع السابق، ج7، ص342./ كمال بن صحراوي، المرجع السابق، مج7، ص278.

[23]– صالح العنتري، المصدر السابق، ص7.

[24]– بسّام العسيلي، محمد المقراني وثورة 1871 الجزائرية، ط3، دار النفائس، بيروت، 1411هـ/1990م، ص99.

[25]– صالح العنتري، المصدر السابق، ص60.

الألوف من المتشردين الهائمين إلى منطقة القبائل، والكثير منهم لاقوا حتفهم في الطريق، نتيجة لما عانوه من العذاب".[26]

كانت هذه المجاعة أقصى ما يكون على سكان قسنطينة، على حد قول العنتري:" فالغني منهم أفقرته، وصيّرت أحواله ضيقة وحرجة جداً، والضعفاء قد أهلكتهم في حينهم ودمرتهم تدميرا كأنهم لم يكونوا بالأمس، ما ترك الزّمان بعدهم إذ ذاك إلا مراسيم ديارهم خالية، وذلك هو البلاء العظيم وكفى شاهدا على ذلك كون تلك المجاعة سوداء وعظمى"[27]، وذكر العنتري أنها سميت بالمجاعة السوداء لأنها مظلمة ليست فيها رحمة للخلق[28]، وقد اضطرت هذه الظروف القاسية على أهالي قسنطينة بيع خيولهم وحلي النساء للحصول على الحبوب، وبعد أن استهلكوا مخزون كل مطامرهم، أصبحت الأرض غير قادرة على الإنبات.[29]

وصف العنتري هذه الأزمة قائلا:"وفيها أشرف الناس على الهلاك الأليم والبلاء العظيم، بحيث أنه لم يسمع الزمان السابق بمثلها قط...وقد حصل فيها لضعفاء عامة الخلق، بل وإلى كثير من خواصهم أيضا بادية وحاضرة من التشتت والفناء وأكلهم الحشيش ونحوه".[30] نفهم من هذا القول أن المجاعات من أسوأ الكوارث التي تؤثر في حياة الإنسان بسبب سوء التغذية، وليس ذلك فحسب، بل قد يؤدي ذلك إلى ظهور أوبئة يصعب تجاوزها فينتج عنها وفاة الملايين من الأشخاص، وقد وصف المزراي عظمة هذه المجاعة قائلا: "وفي سنة سبع وستين وثمانمائة وألف، الموافقة لسنة أربعة وثمانين ومائتين وألف، حصلت المجاعة العظمى بسائر البلاد، ووقعت تلك المسبغة الكبرى التي أفنت كثير العباد".[31]

لقد خلفت المجاعة الكثير من المتشردين الذين يسميهم العنتري "السبي"، وهم الذين أصابتهم الفاجعة فتفرقوا في البلاد، وصاروا يقطعون الطرق مما أوجب تدخل الدولة، حيث شكلت فرقا بوليسية

---

[26]– مصطفى الأشرف، الجزائر: الأمة والمجتمع، تر: حنفي بن عيسى، دار القصبة للنشر، الجزائر، 2007م، ص15–16.

[27]– صالح العنتري، المصدر السابق، ص55.

[28]– المصدر نفسه، ص55.

[29]– خديجة بقطاش، الحركة التبشيرية الفرنسية في الجزائر 1830–1871، مطبعة دحلب، الجزائر، دت، ص106.

[30]– صالح العنتري، المصدر السابق، ص54–55.

[31]– ابن عودة المزاري، طلوع سعد السعود في أخبار وهران والجزائر وإسبانيا وفرنسا إلى أواخر القرن التاسع عشر، تح: يحيى بوعزيز، الجزائر، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1990م، ج2، ص263.

تجوب الأنحاء وتجمع هؤلاء لتردهم إلى المناطق التي قدموا منها[32]، وهناك من أقدوا على ارتكاب جرائم القتل، حتى يلقي عليهم القبض فيضمنوا لقمة العيش داخل السجون، وعندما كثر ازدحامهم في الطرقات والساحات العامة بمدن الشمال وقراه بحثا عما يسد الرمق، تصايح الأوربيون، وطلبوا إلى السلطات الحاكمة أن تطردهم. بدعوى أنهم كانوا يهددون الأمن والصحة العامة. واستجابت هذه السلطات للأوربيين، فأعطت أوامرها لضباط الجيش من أجل إقامة المعسكرات لحشد المواطنين[33] ، والكثير من هؤلاء السايبين لم يكونوا يرضون بالعيش في الملاجئ، فقد كانوا يفرون من فرق البوليسة أو من تلك الملاجئ، إلى أماكن أخرى أخر أمانا باحثين عن العطاء، لذلك صارت الشرطة تقيدهم بالحبل، بل تربط أعدادا قد تصل إلى العشرين في حبل واحد، ولذلك سمي العام "بعام الحبل" وكذلك بسبب المجاعة والقحط الذي أدى إلى انتشار المتشردين والضعفاء بالجبال، وقد قضت هذه المجاعة في قسنطينة على مائة وستون ألف شخص.[34]

وللقضاء على هذه الفاجعة التي أصابت قسنطينة تدخلت السلطات الفرنسية لتزويد الناس بالحبوب على وجه السلفة حسبما يذكر العنتري:"ولولا فضل الدولة الفرانسوي، وتعاطفاتها الخيرية وإحسان ولاتها على كثير من الخلق بسلف الحبوب ونحوها لضاع الناس بأجمعهم، أو يحل بهم مثل ما حل ببلد تونس وأهل وطنها لا محالة"[35]، ثم يحاول العنتري إقناع الأهالي على ضرورة شكر فرنسا مع الخضوع التام إليها، والاعتراف بفضلها، بل ويعترف بأن إحسانها قد مسه ويعتبر نفسه مثالا حيا قد أدركته "شفقتها" في ذلك الوقت العسير حين أتلفت الجائحة والجراد، وموت الآلاف من المواشي والأغنام[36]، فالعنتري في هذا الصدد يحاول إقناع الرأي العام بالنبل المهمّة الحضارية التي قامت بها الإدارة الفرنسية اتجاه الجزائريين من خلال توفير لهم الطعام والعناية الصحية، هذا في الظاهر لكن في الباطن فإن فرنسا قامت بهذا الأمر لحماية أبنائها من الأمراض والأوبئة التي كان يحملها الجزائريين، والتي توفي بسببها الكثير من الأوربيون خاصة عناصر الجنود الفرنسيين.

وقد تساءل العنتري عن أموال المصابين بتلك المجاعة، وعن الحراثة التي اندثرت بسرعة وعدم تهيأت أهال قسنطينة للمجاعة في سنوات الوفرة بزرع الأراضي وادخار الحنطة لسنوات القحط والجفاف، وقد أجاب بنفسه على هذا السؤال قائلا:"إن الحراثة قد قل بأضعاف قبل جائحة تلك السنة

[32]– صالح العنتري، المصدر السابق، ص60–61.
[33]– بسام العسيلي، المرجع السابق، ص101.
[34]– صالح العنتري، المصدر السابق، ص61./ بسام العسيلي، المرجع السابق، ص101.
[35]– صالح العنتري، المصدر السابق، ص58.
[36]– المصدر نفسه، ص59.

بمدة سبع سنين متوالية كما لا يخفى سيما في أراضي السباخ فإنك لا تجد في بعض السنين منها من يرد زريعته فضلا عن الفائدة. وهذا في الغالب بخلاف السنين السالفة قبلها، فإن الأراضي كانت تصيب جدا وينجح الزرع فيها، والوطن عامر بذخيرة الزرع وقتئذ، وسائر المطامر والرتب كلها مملوءة به، والناس متمتعون إذ ذاك شاكرون للنعم فيها، وأما في وقتنا هذا وما قبله بمدة يسيرة فإن ذخيرة الزرع قد انفقدت من الوطن منذ اثني عشرة سنة، إلا القليل من رؤساء الفلاحين يوجد عنده العتيق من الزرع".[37]

ومما نتج عن هذه المجاعة قلة الأموال وارتفاع أسعار المأكولات والمشروبات بشكل كبير حيث بلغ الصاع الواحد من البر ما بين 60 إلى 70 فرنكا والشعير ما بين 35 إلى 40 فرنكا، ورطل السمن بـ 7 فرنكات والخبز ارتفع سعر 4 مرات، ولتر الزيت بـ 2 فرنك، وأما بالنسبة للمواشي فلم يعد أحد قادرا على شرائها خاصة تلك التي سلمت من المرض الرهمة حيث صارت فضلة لا بيع فيها ولا شراء.[38]

استغل اليهود مجاعة عامي 1867 و1868 لتنمية ثرواتهم وأرباحهم عن طريق القروض التي كانوا يقدمونها للمنكوبين بفوائد فاحشة تتراوح بين أربعين ومائة بالمائة لمدة شهرين أو ثلاثة فقط من العام. مما جعل الكثيرين من المنكوبين يفقدون أملاكهم وتحول بعضهم إلى عمال بالخامسة. وبات من المحال على الجزائريين الوفاء بديونهم حتى عندما تخصب أراضيهم ويرتفع مردودها[39]، وهذا ليس جديدا على اليهود فقد عرفوا منذ القدم على احتكار أموال الناس بالباطل، والتطاول على الرعية بشتى أنواع التعدي، وهذه المجاعة التي عرفتها قسنطينة وجدها اليهود فرصة سانحة للإستلاء على ثروات سكانها بكل الطرق والوسائل.

المبحث الخامس: أسباب المجاعة:

هناك العديد من الأسباب التي كانت وراء انتشار المجاعة في مدينة قسنطينة ومن بينها مايلي:

– الجائحة: يعرفها ابن منظور قائلا:"الجَوْحةُ والجائحة: الشدّة والنازلة العظيمة التي تَجتاح المالَ من سَنَةٍ أَو فتنة، وكل ما استأْصله: فقد جاحَه واجْتاحَه وجاحَ اللهُ ماله وأَجاحَه، بمعنىً، أَي أَهلكه بالجائح"[40]، وقد جاء ذكر هذا المصطلح عند العنتري الذي وصف لنا الوضع الذي آلت إليه مدينة

[37]– صالح العنتري، المصدر السابق، ص63.

[38]– المصدر نفسه، ص64–65

[39]– بسام العسيلي، المرجع السابق، ص102.

[40]– ابن منظور، المصدر السابق، مج2، ص431.

قسنطينة بسبب الجائحة قائلا:"أفسدت الزرع، وأعدمت حصاده براً وشعيراً مع سائر المزارع والنباتات بأسرها بحيث لم يبق للفلاحين مطمع فيها البتتة.[41]

– انتشار الأمراض والأوبئة[42]، فقد شهدت قسنطينة العديد من الأمراض والأوبئة الفتاكة، وحصدت تلك الأوبئة أرواح عشرات بل مئات الملايين وتسببت في تغيرات ديموغرافية واجتماعية واقتصادية، كان أشهر هذه الأوبئة وأشدها فتكاً الكوليرا والجدري والتيفوس وغيرها.

– كثرة الأمطار ونزول الثلج طيلة فصل الشتاء حيث انقطع السيل وفاضت الوديان، وأتلفت المحاصيل الزراعية الضعيفة وموت المواشي والأغنام، وشرد المنكوبون من مناطقهم.[43]

– انتشار الجراد: تعرضت الجزائر سنة 1864م لغزو أسراب الجراد وأخذ هذا الغزو شكلاً خطيراً مع بداية عام 1866م خاصة على مدينة قسنطينة، وقد أطلق عليه باسم "عام الجراد" حيث التهم الحقول والمزارع، وفقد الناس إنتاجهم، وتعرضوا لضائقة مادية شديدة[44]، واستمر انتشار الجراد إلى سنة 1868م فأهلك الحرث والنسل ولم ينجوا من الزرع إلا القليل في تلك الفترة، بحيث أصبحت حقول القمح والشعير خالية تماما من الغلة.[45]

– غلاء الأسعار: حيث ارتفعت أسعار الحبوب والأقوات المطبوخة والغير مطبوخة مع عدم توفر الدراهم بأيدي الناس وقتئذ، وقل البيع والشراء[46]، خاصة أسعار الحبوب حيث بيع الصاع الواحد من البر 100 فرنك، أما برحيه فبلغ سعر الصاع من البر 90 و80 فرنك والصاع من الشعير إلى 40 فرنك، وباقي العلل مثل السمن واللحم والتمر وغيرها ظلت رخيصة.[47]

– كما كان الإستعمار الفرنسي من الأسباب التي أدت إلى فقر الأهالي من الحضر والريفيين من النقود، وأفسحت المجال لتجارها المضاربين من استنزاف بقايا ثرواتهم، وامتصاص دمائهم وتجريدهم من أملاكهم تحت تأثير العقود الربوية التي عقدوها مع المرابين مضطرين.[48]

---

[41]– صالح العنتري، المصدر السابق، ص56.

[42]– المصدر نفسه ، ص56./ خديجة بقطاش، المرجع السابق، ص106.

[43]– صالح العنتري، المصدر السابق ص56.

[44]– بسام العسيلي، المرجع السابق، ص99–100.

[45]– صالح العنتري، المصدر السابق، ص57./ خديجة بقطاش، المرجع السابق، ص105.

[46]– صالح العنتري، المصدر السابق، ص57.

[47]– صالح العنتري، المصدر السابق، ص48–49.

[48]– المصدر نفسه، ص19.

المبحث السادس: الأوبئة التي كانت منتشرة في قسنطينة:

– وباء الرهمة: الذي مس البقر والغنم سنة 1284هـ/1867م بسبب انعدام الحبوب في الأسواق وارتفاع أسعارها مما أدى إلى موتها[49]، ويعتبر هذا المرض أكثر خطورة لأنه يؤدي إلى موت الماشية المصابة في وقت جد قصير من ظهور أعراضه، وبالتالي شل النشاط الرعوي، مما أدى إلى ضعف النشاط الاقتصادي.

– وباء الكوليرا: مرض شديد،وهي جرثومة تصيب أمعاء المريض وتسبب لها لإسهال الشديد والقيء، وجفاف الجسم[50]، وينجم عن تناول الأطعمة أو شرب المياه الملوّثة، وهو يستغرق فترة تتراوح بين 12 ساعة و5 أيام لكي تظهر أعراضه على الشخص عقب تناوله أطعمة ملوثة أو شربه مياه ملوثة[51]، وقد انتشر مرض الكوليرا عام 1866 بشكل محدود ثم تعاظم خطره في عام 1867 و1868م، وانتشر في البلاد عن طريق المسافرين الأجانب الذين كانوا يفدون للبلاد عن طريق الموانئ.[52]

– وباء التيفوس: ينتشر بسهولة إذا وجد الأرضية الخصبة وهذا ما يعني حالة المجاعة وقلة التغذية[53]، هو مرض وبائي معدي، تسببه جرثومة ريكتسيا، وينتقل الوباء عن طريق القمل، ويتسبب في ارتفاع درجة حرارة الجسم، وبقع حمراء على الجلد[54]، ويُسمّى أيضا مرض التيفوس بالحمى النمشية[55]، وقد انتشر بسرعة في مدينة قسنطينة فأخذ الأهالي يموتون بالجملة في القرى والطرقات العامة، مما أرغم السلطات الفرنسية على تسخير السكان لحفر الخنادق العميقة لدفن الموتى الذين قدر عددهم بالمئات.[56]

---

[49]– نفسه، ص56.

[50]– Petit Larousse en couleurs: Dictionnaireencyclopédiquepour tous, libraire larousse, paris, 1980, p187.

[51]- https://www.who.int/ar/news-room/fact-sheets/detail/cholera

[52]– بسام العسيلي، المرجع السابق، ص100.

[53]–الجيلالي صاري، الكارثة الديمغرافية(1867–1868)، تر: عمر المعراجي، الأكاديمية الجزائرية للوثائق والمصادر التاريخية، دت، ص195.

[54]– Larousse en couleurs: Op, Cit,p952.

[55]– مصطلحات–طبية/الامراض–المعدية/تيفوس/ https://altibbi.com

[56]– بسام العسيلي، المرجع السابق، ص100.

الخاتمة:

أسهم موضوع دراستنا في الكشف عن حقائق اجتماعية في زمن الأوبئة والمجاعات التي حلت بمدينة قسنطينة في عامي 1866–1868 من خلال كتاب مجاعات قسنطينة للعنتري، فقد شكلت خطرا حقيقيا على حياة سكان قسنطينة، مما نجم عنه الموت أو انتشار الأمراض والأوبئة منها الكوليرا والتيفوس، وتسببت أيضا في مشاكل اجتماعية منها النهب والتسول والسرقة، وتكاثر الفتن بين الأهالي خاصة الفلاحين بسبب قلة الحبوب وارتفاع أسعارها.

النتائج:

1/– اعتنى العنتري بأخبار المجاعات في مدينة قسنطينة، لأنه أدرك هذه الفاجعة، وهذا ما جعل المؤلف أكثر حساسية تجاه المجاعات الناتجة عن القحط في قسنطينة، فنجده يوجه عناية كبيرة للتأريخ لمعاناة الأهالي خلال هذه الفترة.

2/– إن الأوبئة والمجاعات دفعت بالفئات الضعيفة التي تعيش في الأرياف إلى الهجرة نحو مدينة قسنطينة سعيا وراء لقمة العيش، وهذا ما تسبب في مشاكل اجتماعية منها النهب والتسول والسرقة.

3/– عانت قسنطينة مثل غيرها من المناطق في المغرب الأوسط مثل وهران ومدينة الجزائر من ويلات المجاعات، ويقصد بالمجاعة حالة ندرة الغذاء أو عدمه على نطاق واسع، وقد ينجم عنها الموت أو المرض، ويؤثر كذلك على الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية.

4/– ظهور الأوبئة في قسنطينة بسبب المجاعة منها وباء الكوليرا والتيفوس الذي انتشر بسرعة في مدينة قسنطينة فأخذ الأهالي يموتون بالجملة في القرى والطرقات العامة، وكذلك وباء الرهمة الذي أصاب المواشي، بسبب ندرة الحبوب والتبن في الأسواق وارتفاع أسعارها.

5/– تكاثر الفتن بين الأهالي خاصة الفلاحين بسبب قلة الحبوب وارتفاع أسعارها واستغلال اليهود المجاعة لتنمية ثرواتهم وأرباحهم عن طريق القروض التي كانوا يقدمونها للمنكوبين بفوائد فاحشة.

التوصيات:

- ضرورة التوعية بأهمية هذا التراث الثقافي لمنطقة قسنطينة والتشجيع على البحث والتنقيب فيه.
- تعزيز دور تقنيات المعلوماتية في الاطلاع على تجارب مدينة قسنطينة ومواجهتها للمجاعة في العصور الغابرة، وذلك من أجل الحفاظ على تراثها التاريخي والاستفادة من تجاربها في مواجهة المجاعات والأوبئة.
- دعوة الجامعات والكليات والمؤسسات التربوية لتوجيه الأساتذة والطلاب لدراسة التاريخ القسنطيني في مختلف المجالات.
- ضرورة وضع دراسات حول شخصية صالح العنتري وعن كتابه مجاعات قسنطينة والذي يعد مصدرا مهما في التراث القسنطيني.
- إعداد أفلام وأشرطة وثائقية بمختلف اللغات تعرف بتاريخ مدينة قسنطينة من أجل تعميمها وإيصالها إلى أكبر عدد ممكن من بلدان العالم.

قائمة المصادر والمراجع:

أولا: قائمة المصادر المطبوعة:

1. ابن الخطيب، لسان الدين (ت776هـ /1374م)، مقالة مقنعة السائل عن المرض الهائل، تح: حياة قارة، مكتبة الكرامة، الرباط، 1436هـ/2015م.
2. ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد الحضرمي الإشبيلي(ت808هـ/1406م)، تاريخ ابن خلدون المسمّى ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، تح: خليل شحادة، مر: سهيل زكار، دار الفكر، بيروت، 1421هـ/2000م.
3. ابن عودة المزاري، طلوع سعد السعود في أخبار وهران والجزائر وإسبانيا وفرنسا إلى أواخر القرن التاسع عشر، تح: يحيى بوعزيز، الجزائر، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1990م.
4. ابن منظور الإفريقي (ت711هـ/1311م)، لسان العرب، دار صادر، بيروت، 1414هـ/1993م.
5. الجوهري، إسماعيل بن حمّاد (ت393هـ/1003م)، الصّحاح تاج اللّغة وصحاح العربية، تح : أحمد عبد الغفور عطّار،ط3، دار العلم للملايين، بيروت، 1404هـ/1984م.

6. الحفناوي، أبو القاسم محمد(ت1360هـ/1943م)، تعريف الخلف برجال السلف، مطبعة بيير فونتانة الشرقية، الجزائر، 1324هـ/ 1906م.

7. صالح العنتري(كان حيا 1287هـ/1870م)، مجاعات قسنطينة، تح: رابح بونار، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1394هـ/1974م.

8. الفيروزآباديّ، مجد الدين محمد بن يعقوب(ت817هـ/1415م)، القاموس المحيط، تح: مكتب تحقيق التراث، إشراف: محمد نعيم العرقسوسي،ط8، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1426هـ/2005م.

ثانيا: قائمة المراجع العربية:

1. أبو قاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي 1830–1954، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1998م.

2. الأنطاكي داود عمر، بغية المحتاج في المجرّب من العلاج، دار الفكر، بيروت، 1415هـ/1995م.

3. بقطاش خديجة، الحركة التبشيرية الفرنسية في الجزائر 1830–1871، مطبعة دحلب، الجزائر، دت.

4. مسعود جُبران، الرائد معجمٌ لغويٌّ عصريٌّ، ط7، دار العلم للملايين، بيروت، 1992م.

5. نويهض عادل، معجم أعلام الجزائر من صدر الإسلام حتى العصر الحاضر، ط2،مؤسسة نويهض الثقافية، بيروت، 1400هـ/1980م.

ثالثا: قائمة المراجع المعرّبة :

1. الأشرف مصطفى، الجزائر: الأمة والمجتمع، تر: حنفي بن عيسى، دار القصبة للنشر، الجزائر، 2007م.

2. صاري الجيلالي، الكارثة الديمغرافية(1867–1868)، ترجمة: عمر المعراجي، الأكاديمية الجزائرية للوثائق والمصادر التاريخية.

رابعا: قائمة المراجع الأجنبية

1. Petit Larousse en couleurs:Dictionnaireencyclopédiquepour tous, libraire larousse, paris, 1980.

خامسا: قائمة المقالات

1. بن صحراوي كمال، مجاعة 1868 بالجزائر من خلال نصوص محلية وأخرى فرنسية، مجلة عصور جديدة، ع26، 1438هـ،/2016–2017م.

سادسا: المواقع الإلكترونية:

1. https://www.who.int/ar/news-room/fact-sheets/detail/cholera.
2. مصطلحات–طبية/الامراض–المعدية/تيفوس/ https://altibbi.com